الدرس التاسع والثلاثون

تفسير سورة الإنسان: [١ : ٣]

سورة الإنسان سورةٌ مكيّة عظيمة، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها، وبسورة السجدة، في صلاة الفجر يوم الجمعة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»[١]، ويداوم على ذلك.

وقد تعرضت هذه السُّنة لهجران وتحريف. أما الهجران فهو استثقال كثير من الناس الإتيان بها، بسبب طول القيام، واستعاضوا عنها بالسور القصار. فالواجب على الأئمة أن يحيوا هذه السنة، ويحرصوا على المحافظة عليها، إلا ما ندر؛ فلا بأس أن يفصل الإنسان أحيانًا فيقرأ بسواهما، لكن يجعل عامة قراءته صبيحة الجمعة بما كان عليه النبي، صلى الله عليه وسلم.

وأما التحريف فهو أن بعض الأئمة يعمد إلى اقتطاع شيءٍ من السورتين، فيقرأ ببعض السجدة والإنسان، أو ببعض الإنسان، أو يقتصر على إحداهما، وهذا من الخطأ العظيم والتشويه للسنة، فإما أن يأتي بالسنة على وجهها أو يدع؛ فلو أنه ترك قراءتها كان خيرًا من أن يأتيَ بها على صفة غير مشروعة.

وهذه السورة لها مقاصد، **فمن أعظم مقاصدها**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٩١)، ومسلم رقم (٨٨٠).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

١. بيان حال الإنسان من مبتدئه إلى منتهاه، ولهذا التمس بعض العلماء حكمةً لمشروعية قراءة ﷺ لسورة السجدة والإنسان يوم الجمعة؛ لما فيهما من ذكر خلق آدم وخلق الإنسان ومنتهاه، ويوم الجمعة هو اليوم الذي خلق الله تعالى فيه آدم وفيه تقوم الساعة، ففي قراءتهما مناسبة للزمان وتذكير بأصل الإنسان.

٢. بيان حقيقة الهداية والإضلال.

٣. بيان أسباب الهدى والاستقامة.

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)}

يقول الله عز وجل: {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}

{هَلْ} هنا استفهامٌ يقصد به التقرير، لا يقصد به حقيقة الاستفهام فهو بمعنى قد، فالمعنى: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا.

والإنسان في هذا السياق يُراد به آدم عليه السلام تحديدًا، بينما الإنسان في الآيةِ بعدها يراد به جنس الإنسان، والإنسان في القرآن العظيم أحيانًا يراد به آدم، وأحيانًا يراد به جنس الإنسان؛ وأحيانًا يراد به الكافر خاصةً. والأمثلة على هذا كثيرة.

فآدم عليه السلام؛ أتى عليه وقتٌ وهو عدم، وأتى عليه وقتٌ وهو صلصال كالفخار، منجدلٌ في طينته، مرّت عليه أربعون عامًا لم يكن شيئًا مذكورا، وفي هذا

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

تنبيه من الله عز وجل على أصل خلق الإنسان، وأنه لم يك شيئًا ثم أنشأه من العدم، فكيف يطغى؟!

قوله: {لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}، كان غَفَلًا هَمَلًا، لا يُؤبه له، ولا يُعرف، ولا يُذكر، ثم هو بعد ذلك يناكف ربّه ويعاند رسله، ويطغى على عباده.

قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}، الإنسان هَهُنا هم نسل آدم؛ لأنهم هم المخلوقون من النطف، بخلاف آدم عليه السلام فإن الله تعالى خلقه من طين، فخلق الله تعالى بقية بني آدم من نطفة أمشاج.

والنطفة هي القذفة المنوية التي تخرج من الرجل وتخرج من المرأة، فينشأ من امتزاجهما واختلاطهما بداية تخليق الإنسان، وقد جاء العلم الحديث فيما يسمى بعلم الأجنة بتفاصيل لهذه العمومات، تدل على ما دلّ عليه القرآن، وتظهر من دلائل الربوبية ما لم يكن في علم الأولين. فإنّ الدفقة التي يقذفها الرجل تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية. والحيوان المنوي عبارة عن خلية تختلف عن بقية خلايا الجسم، ويقول علماء وظائف الأعضاء: إنّ سائر الخلايا يكون فيها ستة وأربعون مورّثًا جينيًا، إلا الخلية المنوية ففيها نصف العدد، ففيها ثلاثة وعشرون مورثًا جينيًا (كروموزوم) من الرجل، يقابله ثلاثة وعشرون من بويضة المرأة، ليمتزج ماء الرجل بماء المرأة، ويصبح العدد ستة وأربعون، فتتكون الخلية الأمشاج فإذا قذف الرجل هذه القذفة فإن الدفقة الواحدة تضمّ أكثر من مليون حيوان منوي فلا يُخلّق منها إلا واحد من هذا المليون، يلقّح البويضة التي تنحدر من رحِم المرأة فتنشأ الخلية الأولى،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وهذا يدل على سعة قدرة الله عز وجل. يكفي من هذه المليون خلية واحدة لكي تكون مبتدأ الخلق.

فمعنى {أَمْشَاجٍ} أي: أخلاط، أي مزيج من ماء الرجل وماء المرأة يلتقيان بقدرة الله ويحصل التخصيب، فتنشأ الخلية الأولى ثم تعلَق في جدار الرحم، ولذلك تسمى علقة، والمفسرون الأوائل يقولون: العلقة قطعة من دم؛ وذلك أن الأوعية الدموية التي تكون في جدار الرحم تمدها بالغذاء، فلا تزال تمدها بالغذاء حتى تكتسب هذا الوصف، وتبدو كأنها قطعة جامدة من دم. فلا تزال تنقسم انقسامات متتالية حتى تصبح مضغة، ثم إن هذه المضغة لا تزال تنقسم وتتخصص خلاياها حتى تصبح مُخلّقة ثم بعد ذلك تصل إلى مراتب أُخر كما ذكر الله تعالى في سورة المؤمنون، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

فمراحل تخليق الجنين تدل على عظمة الله عز وجل، كما قال ربنا عز وجل: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} [الواقعة:٥٨-٥٩].

فآخر عهد الإنسان أن يقضي نهمته وشهوته ثم ينصرف ولا يدري ماذا يجري، لكنّ الله تعالى يُتابع هذا الخلق فلا تشعر المرأة إلا وقد انقطع عنها الطمَث ليدخر ذلك الدم الذي ينزل غذاء للجنين فينمو ويكبر بإذن الله.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

آياتٌ عِظام لمن تأملها، ويذكّر الله بها دومًا؛ أولًا: لما فيها من دلائل الربوبية، ثانيًا: لما فيها من التذكير بأصل الإنسان. فإذا بهذا الإنسان الذي كان نطفة مذرة تشنؤها العين وتتقزز منها النفوس، لا يلبث أن يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]! {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]! عجبًا له! {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} [البقرة: ٢٥٨]! {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]!، فواعجبًا له ما أطغاه!

{نَبْتَلِيهِ}، أي نختبره، وفي هذا تنبيه على حكمة الخلق، وأن الله سبحانه وتعالى ما خلقه عبثًا ولهوًا بلا حكمة، وإنما لغاية.

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك:٢]. وقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]، فأفعال الله تعالى مُعلّلة، لها حكمة، منزهة عن العبث والسفه وعدم الحكمة، كما قال: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥].

قوله: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} أي: لم تَزَل هذه النطفة الأمشاج تكبر وتنمو حتى تخصصت خلاياها فصار من خلاياها الأذن التي تسمع، والعين التي تُبصر، والقلب الذي يعقل وهذه هي الآلات والأدوات التي يتأهل بها لحمل الأمانة؛ التي أعيت السماوات والأرض والجبال، {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا} [الأحزاب٧٢].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فالإنسان قد آتاه الله تعالى من الآلات والأدوات والاستعدادات ما يتمكّن به من تحمّل التكاليف وفهم الخطاب والقيام بها خُلِق لأجله، والسمع والبصر منافذ التعلم، وكلاهما يصب في الفؤاد الذي فيه العقل، فالسمع والبصر يجلبان المعاني والمعارف والدلائل إلى القلب، فيقوم القلب بتصورها وتعقّلها وإدراكها.

وابن آدم سميع وابن آدم بصير، والله تعالى سميع وبصير لكنّ سمع الله يليق به وسمع المخلوق يليق به، وبصر الله يليق به وبصر المخلوق يليق به واتفاق الأسماء لا يستلزم اتفاق الحقائق والكيفيات، فالاشتراك وقع في الاسم وأصل المعنى الذي يكون في الأذهان ويتخصص في الأعيان، فأصل معنى السمع إدراك الأصوات، وأصل معنى البصر إدراك المرئيات. فلا يُشكل عليك أن يوافق وصف العبد وصفَ الرب، واسمُ العبد اسمَ الرب؛ لأن لله ما يليق به وهو المثل الأعلى وللعبد ما يليق به وهو المثل الأدنى، فالإضافة تمنع التماثل.

فلما تكونت عنده هذه المؤهلات وهذه الاستعدادات، قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} هذه الهداية هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد، فالله سبحانه وتعالى هدى هذا المخلوق الذي بات قادرًا على فهم الخطاب، إلى السبيل، وذلك بإقامة الحجة الرسالية، وقد أودعه قبل ذلك الغريزة الفطرية، فالله سبحانه وتعالى فطر عباده على الدين، كما قال الله سبحانه وتعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم:٣٠]، وقال نبيه ﷺ: فـ(ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ويُنَصِّرانِهِ، كما تُنْتِجُونَ البَهِيمَةَ، هل تَجِدُونَ فيها مِن جَدْعاءَ، حتَّى تَكُونُوا أنتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟)»[٢]، والفطرة هي الإسلام، ولهذا لم يقل يسلمانه أو يؤسلمانه، بل قال: يهودانه وينصرانه لأن التهود والتنصر انحراف عن الفطرة السليمة.

كما نرى الشاة أو الناقة تلِد بهيمةً تامة الخلقة ثم يأتي أصحابها فيجدعون أذنها ويكسرون قرنها، فكذلك ابن آدم يخرج خلقًا سويًا على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، وهي الإيمان به وبربوبيته، واستحقاقه للعبادة، واعتقاد كمال صفاته ثم يؤثر عليه أبواه كما قالَ تعالى في الحديث القدسي: (وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطِينُ فاجْتالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)»[٣]، والمقصود أنّ الله تعالى هداه السبيل، فوق دلالة الفطرة دلالة الحجة الرسالية قال تعالى: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:١٦٥] فلم يدع الله الناس لفطرهم، بل زاد على ذلك أن أرسل إليهم رسلًا، {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣] فأقام الله الحجة الرسالية، وقال سبحانه وبحمده: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر:٢٤]، وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦]

وقال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء:١٥]

والهداية نوعان: إحداهما: هداية الدلالة والبيان والإرشاد.

---

[٢] أخرجه البخاري رقم (١٣٥٨)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

[٣] أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الثانية: هداية التوفيق والإلهام.

فأما هداية الدلالة والبيان والإرشاد فهذه يستطيعها الرسل والعلماء والمربون والوعاظ يدلّون وينصحون ويعظون ويُعلِّمون، كقول الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى:٥٢] وقوله: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت: ١٧].

وأما هداية التوفيق والإلهام فلا يقدر عليها إلا الله، قال الله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص:٥٦]، وقال: {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ١٤٢]، في نحو عشر مواضع من القرآن، وقال: {مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام:٣٩]، {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام:١٢٥]

فالله سبحانه وتعالى أقام الحجة على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم يؤول حال الناس إلى أحد أمرين، إما شاكرًا وإما كفورًا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [التغابن:٢] وهذا الاهتداء للسبيل، ليس قسريًا اضطراريًا، بل إنه يجد في قرارة نفسه وخبيئة قلبه إرادةً تحمله على سلوك أحد السبيلين كما قال ربنا سبحانه وبحمده: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل :٥-٩] فربنا سبحانه وبحمده بيّن للعباد طريق الجنة وطريق

النار، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، وبيّن لهم جزاء الطاعة وجزاء المعصية، وآتى كل نفس مشيئة وفعلًا حقيقين بها يأتي وبها يَذر، فلا يهلك على الله إلا هالك، وليس لأحدٍ أن يحتجّ بالقدر السابق، لسبب جلي؛ وهو أنه لا يعلم ما الذي قدّر الله له وقسمه، وهو حين أمره ونهاه كان يملك الإرادة والقدرة على الفعل أو الترك، فحين فعل، أو حين ترك، كان بمحض اختيار وسبق إصرار، وعليه فلا حجة لأحد على الله.